

سلطان ليوم واحد



رسوم

تامر الشاروني



دار المعارف

تأليف

يعقوب الشاروني

المكتبة الخضراء للأطفال

٥٤

سلطان ليوم واحد



رسوم
تامر الشاروني

تأليف
يعقوب الشاروني



دارالمعارف

”هَلْ رَأَيْتِ يَا وَالِدَتِي كَيْفَ تَرَا جَعَ بَائِعُ الْمَاسِ عَنْ وَعْدِهِ بَعْدَ وَفَاةِ
والدي، وَرَفَضَ أَنْ أَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ نَجْمَةَ الصُّبَّاحِ؟“

رَبَّتِ الْأُمُّ فِي رَفَقٍ عَلَى كَيْفِ ابْنِهَا تُخَفِّفُ عَنْهُ وَهِيَ تَقُولُ:
”مُنْذُ اكْتَشَفْنَا أَنَّ ”نَجْمَةَ الصُّبَّاحِ“ هِيَ الَّتِي تَبِيعُ الْمَاسَ فِي دُكَّانِ وَالِدِهَا
مُتَخَفِيَةً فِي مَلَابِسِ الرِّجَالِ وَنَحْنُ نَعْرِفُ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّلَاعِبِ وَإِخْفَاءِ حَقِيقَتِهِ.“
قَالَ أَبُو الْحَسَنِ سَاخِطًا: ”لَوْ كُنْتُ قَدْ تَزَوَّجْتُ نَجْمَةَ الصُّبَّاحِ لَأَصْبَحْنَا
عَائِلَةً وَاحِدَةً.. كَيْفَ أَثِقُ فِي النَّاسِ بَعْدَ الْيَوْمِ وَقَدْ تَخَلَّى عَنِّي مَنْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ
سَيُصْبِحُ أَقْرَبَ النَّاسِ لِي؟“

قَالَتْ وَالِدَتُهُ مُسْتَنْكِرَةً: ”لَا تَسْمَعْ لِثَقَّتِكَ فِي النَّاسِ أَنْ تَهْتَزَّ يَا بُنَى..
الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ مِنَ الشَّرِّ“
انْتَفَضَ أَبُو الْحَسَنِ وَاقِفًا وَرَاحَ يَتَمَشَّى بِقَلْبٍ جَرِيحٍ فِي قَاعَةِ بَيْتِهِ الْمُتْسَعَةِ
وَقَدْ عَقَدَ يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ.

فَجَاءَ تَوَقَّفَ أَمَامَ وَالِدَتِهِ وَصَاحَ: ”سَأَقْتَسِمُهَا قِسْمَيْنِ!“
انْتَابَتْ وَالِدَتُهُ دَهْشَةً شَدِيدَةً: ”هَلْ يُمَكِّنُ اقْتِسَامُ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؟“
ضَحِكَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَى الرِّغْمِ مِنْ أَحْزَانِهِ: ”أَقْصَدُ الثَّرَوَةَ الَّتِي وَرَثْتُهَا
عَنِ الْوَالِدِي!“

لَمْ تَفْهَمْ وَالِدَتُهُ مَاذَا يَقْصِدُ!

قال موضحاً: "بائع الماس طلب أن أضعف ما يجب أن أدفعه له مهراً لابنته.. تصور أنني سأخضع لاستغلاله ولن أتردد في تبديد ما ورثته من مال ما دام المال كله قد أصبح ملكاً لي، فسألت نفسي: هل يتصور غيره من أصحابي نفس التصور؟"

قالت والدته في فزع: "هل ستوزع عليهم نصف ثروتك؟" عاد أبو الحسن يضحك وهو يقول: "بل سأخفي الجزء الأكبر منها، وأتظاهر أن الباقي هو كل ما ورثته" ثم تمهل قبل أن يكمل: "سأنفق هذا الباقي على أصحابي لاكتشاف ما يخفون تخوي داخل صدورهم!"

وتحمست الأم لقرار ابنها، فقد كانت تخشى أن يبعثر أبو الحسن ثروته الجديدة قبل أن يدرك قيمة الحرص عليها.



وهكذا انتشرت في بغداد كلها حكايات كالأساطير عن الحفلات التي يقيمها الشاب الغني أبو الحسن لأصحابه..

كان منزله يستقبل ضيوفه بعد الغروب فلا ينصرفون قبل انتصاف الليل.. شباب من أبناء التجار، يجتمعون كل ليلة حول طعام شهى فاخر، وموسيقى رائعة وأغان تشدو بها أعذب الأصوات مع تبادل الحكايات والهمس بالأخبار والأسرار.

أَوْ يَدْعُوهُمْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى رِحَالِ صَيْدٍ يَتَسَابِقُونَ فِيهَا عَلَى قَنْصٍ غِزْلَانِ
الصُّخْرَاءِ وَطُيُورِهَا، ثُمَّ يَعُودُونَ بِصَيْدِهِمُ الْوَفِيرِ يَتَأَمَّلُهُ أَهْلُ بَغْدَادَ وَيَتَعَجَّبُونَ.
وَلَمْ يُقَلِّلْ مِنْ سَعَادَتِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا جَارَ اسْمُهُ "السَّيِّدُ فَاضِلٌ" يَضِيقُ بِمَرَحِ
الشَّبَابِ لَا تَرُوقُ لَهُ الْمَوْسِيقَى وَالضَّحِكَاتُ فَيَشْكُو "أَبُو الْحَسَنِ" وَرِفَاقَهُ إِلَى
الْقَاضِي مَرَّةً وَمَرَّاتٍ



ذَاتَ مَسَاءٍ، صَاحَ شَابٌّ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ انْصَرَفَتِ الْمُغَنِّيَةُ الَّتِي أُغْدَقُوا عَلَيْهَا
الْهَدَايَا وَالثَنَاءَ: "هَلْ سَمِعْتُمْ آخِرَ الْأَنْبَاءِ؟"

فَتَوَقَّفَ بَقِيَّةُ الشُّبَابِ عَنْ صَحْبِهِمْ لِحِظَاتٍ..

قَالَ نَاقِلُ الْأَنْبَاءِ: "وَافَقَ تَاجِرُ الْمَاسِ إِبْرَاهِيمَ الْبَغْدَادِيَّ عَلَى خِطْبَةِ ابْنَتِهِ
لصَدِيقِهِ تَاجِرِ الذَّهَبِ مَنْصُورِ الْمُوصَلِيِّ.."

وَلَمْ يَتَنَبَّهْ أَحَدٌ إِلَى التَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى صَاحِبِ الْبَيْتِ "أَبُو
الْحَسَنِ" عِنْدَمَا اسْتَوْعَبَ النَّبَأُ... كَانَ يَأْكُلُ لُقْمَةً، فَكَادَتْ تَتَوَقَّفُ فِي حَلْقِهِ..

هَتَفَ شَابٌّ آخَرُ مُسْتَنَكِرًا فِي مَرَجٍ: "يُزَوِّجُ ابْنَتَهُ لِرَجُلٍ فِي عُمَرٍ وَالِدِهَا؟!
إِنَّهُ يَبِيعُهَا!! وَتَضَاحَكَ الشُّبَابُ..

قَالَ حَامِلُ الْأَنْبَاءِ: "سَيَدْفَعُ الْمُوصَلِيُّ مَهْرًا قَدْرُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ"
صَاحُوا مُسْتَنَكِرِينَ ضَخَامَةَ الْمَبْلَغِ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ تَنَبَّهَ إِلَى الشُّحُوبِ الَّذِي
اعْتَرَى وَجْهَ "أَبُو الْحَسَنِ"..

قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: "يَبْدُو أَنَّ مُضِيفَنَا لَا يَقْدِرُ اللَّيْلَةَ عَلَى السَّهْرِ"

هَمَسَ أَبُو الْحَسَنِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى مِشَاعِرِهِ: "سَأُسْتَرِيحُ قَلِيلًا
ثُمَّ أَعُودُ".

وَفِي غُرْفَةٍ دَاخِلِيَّةٍ أَسْرَعَتِ الْأُمُّ تَسْتَطْلِعُ مَا حَلَّ بِابْنِهَا.. سَأَلَتْهُ فِي لَهْفَةٍ: "لَمْ يَحْدُثْ أَنْ تَرَكْتَ أَصْحَابَكَ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ! مَاذَا أَصَابَكَ عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ؟"

أَجَابَ بَغِيظًا: "إِصَابَةٌ فِي الْقَلْبِ!"

صَاحَتْ فِي جَزَعٍ: "... نَنْقِلُكَ فَوْرًا إِلَى طَبِيبٍ.."

تَأَوَّهَ أَبُو الْحَسَنِ: "مَرَضِي لَا طَبِيبَ لَهُ!"

انْفَجَرَتْ دُمُوعُهَا: "لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ.."

وَبَصُوتٍ جَرِيحٍ سَمِعَتْهُ يَقُولُ: "مَنْصُورُ الْمُوَصَّلِيِّ اشْتَرَى نَجْمَةَ الصُّبَاحِ!"

فَوَجَّثَتْ وَالِدَتُهُ وَتَوَقَّفَتْ دُمُوعُهَا: "تَصَوَّرْتُ أَنَّكَ

نَسِيتَهَا!"

تَنَهَّدَ أَبُو الْحَسَنِ مُتَجَاهِلًا عِبَارَةً وَالِدَتِهِ: "وَلُغَبْتِي

مَعَ الْأَصْدِقَاءِ انْتَهَتْ.. لَنْ أَوْجِدَ الدُّعْوَةَ لِحَفَلَاتِ

أُخْرَى.. سَأُعْلِنُ أَنَّ ثُرُوتِي قَدْ نَفَدَتْ.."



لَمْ تَعُدِ الْأَضْوَاءُ تَسْطَعُ مِنْ نَوَافِدِ بَيْتِ "أَبِي الْحَسَنِ"، فَلَا مُوسِيقَى

وَلَا غِنَاءَ وَلَا مَوَاكِبَ فُرْسَانٍ يَخْرُجُونَ لِلصَّيْدِ.

وَحَيِّمَ الصُّنْمَتِ عَلَى الْبَيْتِ الْكَبِيرِ..

وَمَضَى يَوْمٌ وَأَيَّامٌ، وَأُسْبُوعٌ وَأَسَابِيعٌ، وَأَبُو الْحَسَنِ يُلَازِمُ دَارَهُ يَنْتَظِرُ دَعْوَةَ مَنْ صَدِيقٍ، فَلَا تَجِيءُ لَهُ أَيْةٌ دَعَوَاتٍ..

قَالَتْ وَالِدَتُهُ: "لِمَاذَا لَا تَخْرُجُ لِلنُّزْهَةِ أَوْ لَزِيَارَةِ أَحَدِ الْأَصْدِقَاءِ؟"
أَجَابَ سَاخِطًا: "لَنْ أَسْتَمْتَعَ وَخَدَى بِالنُّزْهَةِ وَلَمْ يَعْذِلْنِي أَوْ لَزِيَارَةِ أَحَدٍ."
قَالَتْ مُسْتَنْكِرَةً: "وَأَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يَتَغَيَّبُوا يَوْمًا عَنْ مَا أَثَدَّتْكَ؟"
أَجَابَ فِي اكْتِنَابٍ: "تَخْلَى عَنِّي الْجَمِيعُ.. لَمْ يُكَلِّفْ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ عَنَاءَ دَعْوَتِي إِلَى حَفْلٍ أَوْ رَحْلَةٍ صَيْدٍ!"

قَالَتْ فِي أَسْفٍ: "اجْتَمَعُوا حَوْلَ مَالِكٍ وَلَيْسَ حَوْلَ شَخْصِكَ!"
صَاحَ أَبُو الْحَسَنِ: "كَمْ يُؤْلِمُنِي الْجُحُودُ!"
قَالَتْ وَالِدَتُهُ: "مِنْ الْمُؤْلِمِ حَقًّا أَنْ تَكْتَشِفَ عَدَمَ وَجُودِ صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَاحِدٍ!"
صَاحَ أَبُو الْحَسَنِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِيُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِهِ الْإِحْسَاسَ بِالسُّخْطِ:
"سَأَعْلَمُ الْجَمِيعَ كَيْفَ يَكُونُ أَلَمُ الْجُحُودِ وَنُكَرَانِ الْجَمِيلِ..."
هَتَفَتْ أُمُّهُ فِي جَزَعٍ: "مَنْ أَنْتَ حَتَّى تُلْقَى دُرُوسَكَ عَلَى النَّاسِ؟!"

قَالَ: "سَأَسْتَخْدِمُ الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ الَّذِي مَازَلْتُ أُحْتَفِظُ بِهِ مِنْ ثَرَوَتِي.. فِي كُلِّ مَسَاءٍ أَقُومُ بِدَعْوَةِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ إِلَى حَفْلٍ فِي بَيْتِي، ثُمَّ أَنْكِرُ مَعْرِفَتَهُ وَأَقْطَعُ صِلَتِي بِهِ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي يُغَادِرُ فِيهَا بَابَ بَيْتِي! سَأَفْعَلُ بِهِمْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا بِي!" وَأَدْرَكَتْ وَالِدَتُهُ مِقْدَارَ مَا يُعَانِي ابْنُهَا مِنْ أَلَمٍ، فَكَتَمَتْ مَخَافَتَهَا مِنْ نَتَاجِجِ مَا يَنْبَوِي الْإِقْدَامَ عَلَيْهِ!



وعندَ الجسرِ الكبيرِ القائمِ فوقَ نهرِ دِجْلَةَ، والذي يعبرُهُ كُلُّ قادمٍ إلى بغدادَ من التُّجَّارِ، اعتادَ أبو الحسن أن يرتدِّيَ أَفْخَرَ مَلابِسِهِ ويقفَ بعدَ الغروبِ. وعندما يُشاهدُ شخصًا تبدو عليه مظاهرُ النِّعْمَةِ والثَّرَاءِ، يَتَقَدَّمُ إليه في تَرْحِيبٍ ويدعوه في بَشاشَةٍ إلى تناولِ العِشاءِ مَعَهُ في بَيْتِهِ. وكانَ هُنَاكَ مَنْ يَقْبَلُونَ الدُّعْوَةَ في تَرْحِيبٍ وَسَعَادَةٍ، وهُنَاكَ مَنْ يتردُّونَ فيقولُ لهم أبو الحسن:

”لَيْسَ في بَيْتِي مَنْ يُؤْنِسُ وَخَدَتِي، والطَّعامُ لَا يَطِيبُ إِلَّا وَهُنَاكَ مَنْ يَتَقاسَمُهُ مَعِيَ.. كما أَحِبُّ الموسيقى والغِنَاءَ وَلَا يحلو الاستِماعُ إِلَّا إذا شارَكَنِي فيه مَنْ يَتَذَوِّقُونَ الفَنَّ وَيَفْهَمُونَهُ“

وبعدَ أن يقضَى أبو الحسن وَضِيفَهُ أَجْمَلَ السَّاعَاتِ، يبذلُ خلالها أبو الحسن كُلَّ جَهْدِهِ لإظهارِ مِشاعِرِ الوُدِّ والتَّكْرِيمِ لِضَيفِهِ، يُفاجئُ الضَّيْفَ وهو يودُّعُهُ قائلاً له في صَوْتٍ جافٍ خَشِنٍ:

”مُنْذُ الْآنَ أَنَا لَا أَغْرِفُكَ، وَلَا أريدُكَ أَنْ تَعْرِفَنِي!“

فَيَنْصَرِفُ الضَّيْفُ مُتَأَلِّمًا لِهَذَا الانْقِلَابِ العَنيفِ في مِشاعِرِ مُضِيفِهِ، وهو يَحْسُ بِقَسْوَةِ القَطِيعَةِ بَعْدَ حَرَارَةِ التَّرحِيبِ ودِفءِ الاستِقبالِ!

وواظَبَ أبو الحسن على سُلُوكِهِ الغَرِيبِ هَذَا مُدَّةَ شَهرٍ كامِلٍ، مُتَصَوِّراً أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ سَيَجْعَلُهُ يَنْسَى ما سَبَقَ أَنْ أَحْسَّ هو بِهِ مِنْ جُحُودِ أَصْدِقائِهِ.

وكانَ السُّلطانُ قد اِغتادَ أن يَتَخَفَى ليتعرَّفَ على أحوالِ شَعْبِهِ وكَعادَتِهِ
تَخَفَى ذاتَ مَساءٍ في مَلابِسِ الثُّجَّارِ، وانطَلَقَ يَعبُرُ الجَسَرَ مَعَ تابعٍ لَهُ وهُمَا
عائِدانِ إلى بَغدادَ بَعْدَ جَولَةٍ لهُمَا.
وفُوجِيَ السُّلطانُ المُتَخَفَى بِشابٍّ وَسيمَ يَتَقَدَّمُ نَاحِيَتَهُ وَيَقولُ في تَرحيبِهِ:
”هَلْ يَتَفَضَّلُ سَيِّدِي فَيُشَرِّفُنِي اليَومَ بِتَناوُلِ العِشاءِ مَعِي؟“



ولم يكن في مظهر الشاب ما يحمل على الشك في أمره، والسلطان المتخفي شغوف بمثل هذه المغامرات الغامضة، فلم يتردد في قبول الدعوة.

وبينما وقف التابع عند مدخل البيت كالحارس للأطمينان على سلامة سيده، قضى السلطان المتخفي في ملابس التجار أمسية رائعة مع "أبو الحسن"، تناول خلالها السمك المشوي الذي تم صيده أمامه من مياه نهر دجلة، وامتدح مذاق لحم خروف صغير، وتذوق أحدى أنواع الحلوى والفاكهة والمرببات، واستمتع أثناء الطعام بموسيقى عازف موهوب صاحبه مغنية شابة انسأب صوتها الشجي كأنها تغرد..

قال السلطان المتخفي لأبي الحسن:

"أنت شاب كريم تتمتع بذوق رفيع و تحب ضحبة الناس، وقد أهديت لي ليلة من أجمل ليالى عمري.. لأبد أن أعرف الأسباب الحقيقية التي حملتك على دعوتي إلى بيتك بغير أن تعرف حتى اسمي".

قال أبو الحسن ضاحكاً: "بل أنا الذى أشكرك أيها التاجر المتفائل، لأن ضحبتك ملأت ليلتي بالبهجة، وجعلتني أستمع استمتاعاً حقيقياً بالطعام والموسيقى".

قال الضيف: "بل لأبد أن أرد لك بعض هذا الكرم الذى أغرقتني به".

احتج أبو الحسن: "لكننى حريص ألا يتكلف ضيفى بأى شئ

نحوى!"

قال الضيف: "إذن كن على ثقة أنني لن أغادر بيتك هذا قبل أن أعرف حقيقة قصتك!.. سلوكك يدل أنك تخفي سرًا، وأنا حريص على دغوتك إلى مائدتي كما دغوتني".

وحاول أبو الحسن أن يتهرب من الإجابة عن أسئلة ضيفه ودغوته، لكن كانت هذه أول مرة يجد فيها أحد ضيوفه الغرباء يصير هذا الإضرار على رد التحية له بأحسن منها!

همس أبو الحسن لنفسه: "هذا هو الخير المتأصل في الإنسان الذي طالما حدثتني عنه والدتي". وفي النهاية وجد نفسه يخكى حكايته كلها لضيفه.

همس السلطان لنفسه: "لابد أن أعيد لهذا الفتى ثقته في الناس". ثم التفت إلى "أبو الحسن" قائلاً:

"هل يمكن أن أسألك عن أهم شيء تزدجو تحقيقه في حياتك؟"

ولما كان أبو الحسن لا يأخذ الأمر كله إلا على أنه دعاية لطيفة، فقد تذكر تاجر الماس الذي تراجع عن وعده، وجارهُ "السيد فاضل" الذي يريد إيداء جيرانه، فقال ضاحكاً: "إذا أصبحت سلطاناً ليوم واحد، أتمنى أن أعاقب من يتراجعون عن وعودهم، ومن يريدون فرض ما يحبون وما يكرهون على الآخرين!"



وكانَ هَذَا الرُّدُّ الضَّاحِكُ هُوَ كُلُّ مَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ السُّلْطَانُ الْمُتَخَفِيُّ!!
لَقَدْ تَحَيَّنَ لَحُظَةً غَابَ فِيهَا أَبُو الْحَسَنِ دَاخِلَ الدَّارِ، فَأَخْرَجَ مَسْحُوقًا مُنَوَّمًا
يَحْتَفِظُ بِهِ دَائِمًا بَيْنَ ثِيَابِهِ، وَوَضَعَ مِنْهُ قَدْرًا فِي كَأْسِ الْعَصِيرِ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ
أَبُو الْحَسَنِ.

وَلَمْ تَمُضِ دَقَائِقُ حَتَّى كَانَ أَبُو الْحَسَنِ قَدْ اسْتَغْرَقَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ..
وَأَسْرَعَ السُّلْطَانُ يَسْتَدْعِي تَابِعَهُ، وَأَمَرَهُ بِتَذْيِيرِ وَسِيلَةٍ لِنَقْلِ "أَبِي الْحَسَنِ"
إِلَى الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَتِمَّ هَذَا فِي هُدُوءٍ وَبَغَيْرِ ضَجَّةٍ.



أَصَابَتْ الدَّهْشَةَ الشَّدِيدَةَ الْحُرَّاسَ الَّذِينَ يَقِفُونَ عِنْدَ مَدْخَلِ الْقَصْرِ
السُّلْطَانِيِّ، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ سُلْطَانَهُمْ يَعُودُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَخَلْفَهُ أَرْبَعَةُ
رِجَالٍ يَحْمِلُونَ مَحْفَةً يَخْتَفِي مَا فَوْقَهَا تَحْتَ غِطَاءٍ سَمِيكِ.
وَكَانَتْ دَهْشَةُ حَمَلَةِ الْمَحْفَةِ أَشَدَّ عِنْدَمَا لَمْ تَصْذُرْ إِلَيْهِمُ الْأَوَامِرُ بِالذَّهَابِ بِهَا
إِلَى زَنْزَانَاتِ السَّجْنِ تَحْتَ الْأَرْضِ أَسْفَلَ مَبَانِي الْقَصْرِ، وَلَا إِلَى الْجَنَاحِ الْفَاخِرِ
الْمُخَصَّصِ لِمُتَضَائِفَةِ كِبَارِ الزَّائِرِينَ، بَلْ وَجَدُوا سُلْطَانَهُمْ يَقُودُهُمْ مُبَاشَرَةً إِلَى
الْقَاعَةِ الْمُخَصَّصَةِ لِنَوْمِهِ!!

وَطَلَبَ السُّلْطَانُ وَضَعَ الْمَحْفَةِ بِجَوَارِ فِرَاشِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْإِنْصِرَافِ!
وَكَمَا يَحْدُثُ فِي اللَّيَالِي الَّتِي يَعُودُ خِلَالَهَا سَيِّدُ الْبِلَادِ وَقَدْ تَأَخَّرَ الْوَقْتُ،
أَضِيَتْ كُلُّ أَنْوَارِ الْقَصْرِ بَعْدَ أَنْ اسْتَيْقَظَ جَمِيعُ مَنْ فِيهِ، وَأَسْرَعَ الْمُشْرِفُونَ

والجَوَارِي والوَصِيفَاتُ يَنْتَظِرُونَ خَارِجَ قَاعَةِ نَوْمِ السُّلْطَانِ فِي انْتِظَارِ
أَوَامِرِهِ.



وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَسْتَدْعِيَ السُّلْطَانُ بَعْضَ الْعَامِلِينَ فِي الْقَصْرِ لِأَمْرِهِمْ بِإِخْطَارِ
السُّلْطَانَةِ بِعَوْدَتِهِ، أَوْ بِإِغْدَادِ الْعِشَاءِ، أَوْ اسْتِذْعَاءِ الْوَزِيرِ لِإِحَاطَتِهِ بِأَمْرِ يَجِبُ
سُرْعَةَ تَنْفِيذِهِ. بَدَلًا مِنْ كُلِّ هَذَا الَّذِي تَعَوَّدَ أَهْلُ الْقَصْرِ عَلَى تَنْفِيذِهِ، صَفَّقَ
السُّلْطَانُ بِيَدَيْهِ أَمْرًا:

”عَلَى كُلِّ الْعَامِلِينَ وَالتَّابِعِينَ، ابْتِدَاءً مِنَ الْمُشْرِفِ عَلَى شُئُونِ الْقَصْرِ إِلَى
أَصْغَرِ الْوَصِيفَاتِ أَنْ يَجْتَمِعُوا الْآنَ هُنَا بِغَيْرِ إِنْطَاءٍ!“
كَانَ الْأَمْرُ غَرِيبًا، لَكِنَّ أَهْلَ الْقَصْرِ اعْتَادُوا عَلَى تَلْقَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَوَامِرِ غَيْرِ
الْمُتَوَقَّعَةِ مِنَ سُلْطَانِهِمُ الْبَاحِثِ عَنِ الْجَدِيدِ، الشُّغُوفِ بِمُرَاقَبَةِ النَّاسِ عِنْدَمَا
يُوَاجِهُونَ مَوَاقِفَ لَمْ يَعْتَادُوا عَلَيْهَا.

وَعِنْدَمَا امْتَلَأَتِ الْقَاعَةُ، أَشَارَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمُشْرِفِ عَلَى شُئُونِ الْقَصْرِ،
فَتَقَدَّمَ نَاحِيَةَ الْمَحْفَةِ، وَرَفَعَ الْغِطَاءَ عَنْهَا..
وَازْدَادَتْ دَهْشَةُ الْمُجْتَمِعِينَ عِنْدَمَا تَرَكَّزَتْ أَبْصَارُهُمْ عَلَى الشَّابِّ الْمُسْتَغْرِقِ
فِي النَّوْمِ فَوْقَهَا.

أَمَرَ السُّلْطَانُ: ”ارْفَعُوهُ. ضَعُوهُ فَوْقَ فِرَاشِي!“ وَتَقَدَّمَ أَرْبَعَةً مِنَ الْخُرَاسِ
يَسْأَلُونَ أَنْفُسَهُمْ: ”هَلْ سَمِعُوا الْأَمْرَ جَيِّدًا، أَمْ خَاسَتْهُمْ أَسْمَاعُهُمْ؟!“
فَوَقَفُوا حَوْلَ الْمَحْفَةِ لَا يَجْزِعُونَ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَمْرِ..

صاحَ فيهِم السُّلْطَانُ: "قُلْتُ ضَعُوهُ فِي فِرَاشِي!.."

وَتَابَعَتْ أَنْظَارُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَا يَقُومُ بِهِ الْخُرَاسُ الْأَرْبَعَةُ وَهُمْ يَرْفَعُونَ الشَّابَّ النَّائِمَ وَيَضَعُونَهُ فَوْقَ الْفِرَاشِ الْوَثِيرِ الَّذِي لَمْ يَجْرُؤْ إِنْسَانٌ غَيْرُ السُّلْطَانِ عَلَى النَّوْمِ فَوْقَهُ.

ثُمَّ التَفَتَ السُّلْطَانُ إِلَى مَنْ بَلَغَ بِهِمْ حُبُّ الاسْتِظْلَاعِ آخِرَ الْمَدَى، وَقَالَ: "هَذَا الشَّابُّ هُوَ سُلْطَانُكُمْ مُنْذُ هَذِهِ السَّاعَةِ وَلِمُدَّةِ يَوْمٍ كَامِلٍ .. عَامِلُوهُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ أَنَا.. نَقْذُوا أَوْامِرَهُ وَمَا يَطْلُبُهُ مِنْكُمْ كَأَنَّهُ عَاشَ هُنَا دَائِمًا وَسَيَظِلُّ يَعِيشُ هُنَا عَلَى الدَّوَامِ.. تَلْقُوا طَلَبَاتِهِ وَنَقْذُوهَا عَلَى أَنَّهُ السُّلْطَانُ، وَعَلَى أَنَّهُ سَيَظِلُّ سَيِّدَ الْبِلَادِ"

وَعَادَ السُّلْطَانُ يَتَلَفَّتُ يَمِينًا وَيَسَارًا وَيَسْأَلُ: "هَلْ اسْتَوْعَبْتُمُ الْأَمْرَ؟ لَا أَرِيدُ أَنْ يَشْكُ هَذَا الشَّابُّ فِي حَقِيقَةٍ مَا تُعَامِلُونَهُ بِهِ!"
وَابْتَهَجَ الْبَعْضُ بِهَذِهِ اللَّغْبَةِ الْجَدِيدَةِ الْمَرِحَةِ خَاصَّةً الْوَصِيفَاتِ الشَّابَّاتِ وَهُنَّ يَتَطَلَّعْنَ إِلَى وَجْهِ "أَبُو الْحَسَنِ" الْوَسِيمِ، بَيْنَمَا هَمَسَ آخَرُونَ لَأَنْفُسِهِمْ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الدُّعَابَةِ لَنْ تَطُولَ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ وَاحِدٍ!"



أَخِيرًا أَفَاقَ أَبُو الْحَسَنِ مِنْ تَأْثِيرِ الْمُنُومِ..
لَكِنَّهُ كَانَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ النَّوْمِ، فَظَلَّ حَرِيصًا عَلَى إِغْلَاقِ عَيْنَيْهِ، فَلَمْ يَتَنَبَّهْ أَنَّ الظَّلَامَ لَا يَزَالُ مُخَيِّمًا.



وراحَ يَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِهِ لِئَوَاصِلَ نَوْمِهِ عِنْدَمَا سَيَنْظُرَ عَلَيْهِ إِحْسَاسٌ غَرِيبٌ
فَاعَادَ لَمَسَ الْفِرَاشِ تَحْتَهُ وَالْغِطَاءِ فَوْقَهُ!

”.. هَذَا لَيْسَ مَلَمَسَ فِرَاشِي الَّذِي اعْتَدْتُ عَلَيْهِ!!“

ثُمَّ وَاصَلَ حَدِيثَهُ إِلَى نَفْسِهِ فِي ذَهُولٍ:

”الْمَلَمَسُ هُنَا نَاعِمٌ شَدِيدُ النِّعْمَةِ، أَمَّا فِرَاشِي فَفِيهِ شَيْءٌ مِنْ خُسُونَةٍ!“

وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ..

لَمْ يَفْهَمْ أَيْنَ هُوَا

مَا هَذِهِ الْمَادَّةُ الْمُتَمَوِّجَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ مِنْ أَرْبَعَةِ جَوَانِبٍ؟!

وَمَا هَذَا الشَّيْءُ اللَّيِّنُ غَايَةَ اللَّيْنِ الَّذِي يَغْوِصُ فِيهِ بِكُلِّ جَسْمِهِ؟!

سَأَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ وَغْيٍ: ”هَلْ أَطِيرُ فَوْقَ سَحَابٍ أَمْ أَنَامُ فَوْقَ أَجْنِحَةِ الْهَوَاءِ؟!“

وَتَلَفَّتْ حَوْلَهُ وَعَادَ يَقُولُ: ”أَوْ لَعَلَّنِي مِثُّ وَأَنَا الْآنَ فِي طَرِيقِي إِلَى الْجَنَّةِ!“

وَرَفَعَ جَسْمَهُ وَجَلَسَ فَوْقَ الْفِرَاشِ...

وَفِي الْحَالِ أَشْرَقَتْ أَنْوَارٌ بَاهِرَةٌ.

وَانْزَاخَتْ عَنِ الْجَوَانِبِ الْأَرْبَعِ سَتَائِرُ حَرِيرِيَّةٍ بَيْضَاءٍ..

وَفُوجِئَ بِأَرْبَعِ فَتَيَاتٍ حَسَنَائَاتٍ وَاقِفَاتٍ حَوْلَ فِرَاشِهِ!

وَوَصَلَ إِلَيْهِ صَوْتُهُنَّ الْعَذْبُ مِنْ شِفَاهِ وَرْدِيَّةٍ تَزِينُ وَجُوهَهَا ضَاحِكَةً.

”صَبَاحُ الْخَيْرِ يَا سَيِّدِي السُّلْطَانُ!“



”سَيِّدُكُمْ السُّلْطَانُ؟... لَا شَكَّ أَنَّنِي أَحْلَمُ!!“

ثم عادَ يَهْمِسُ لِنَفْسِهِ: ”هَذَا شَيْءٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقِيًّا!“

وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَارْتَمَى فَوْقَ الْفِرَاشِ وَهُوَ يَهْدِي: ”هَذَا الْحُلْمُ الْعَجِيبُ يَجِبُ

أَنْ أَسْتَمْتَعَ بِهِ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مُمَكِنَةٍ..“

لَكِنَّ الوَصِيفَاتِ لَمْ يَتْرُكْنَهُ لِأَخْلَامِهِ..

كَانَ السُّلْطَانُ يُرَاقِبُهُ مِنْ خَلْفِ السُّتَارِ، وَقَدْ أَشَارَ بِيَدَيْهِ إِلَيْهِنَّ أَلَّا يَسْمَخْنَ
لَهُ بِالنُّومِ أَكْثَرَ مِمَّا نَامَ!

تَقَدَّمَتْ نَحْوَةُ الْوَاقِفَةِ عَنْ يَسَارِهِ تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهَا إِبْرِيْقًا مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ
وَقَالَتْ: "أَعَدَدْنَا الْمَاءَ الدَّافِقِيَّ الَّذِي اغْتَدْتَ أَنْ تَسْتَخْدِمَهُ لِلَاغْتِسَالِ

يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانُ!" وَتَقَدَّمَتْ الْوَاقِفَةُ إِلَى يَمِينِهِ وَقَدْ نَشَرَتْ بَيْنَ

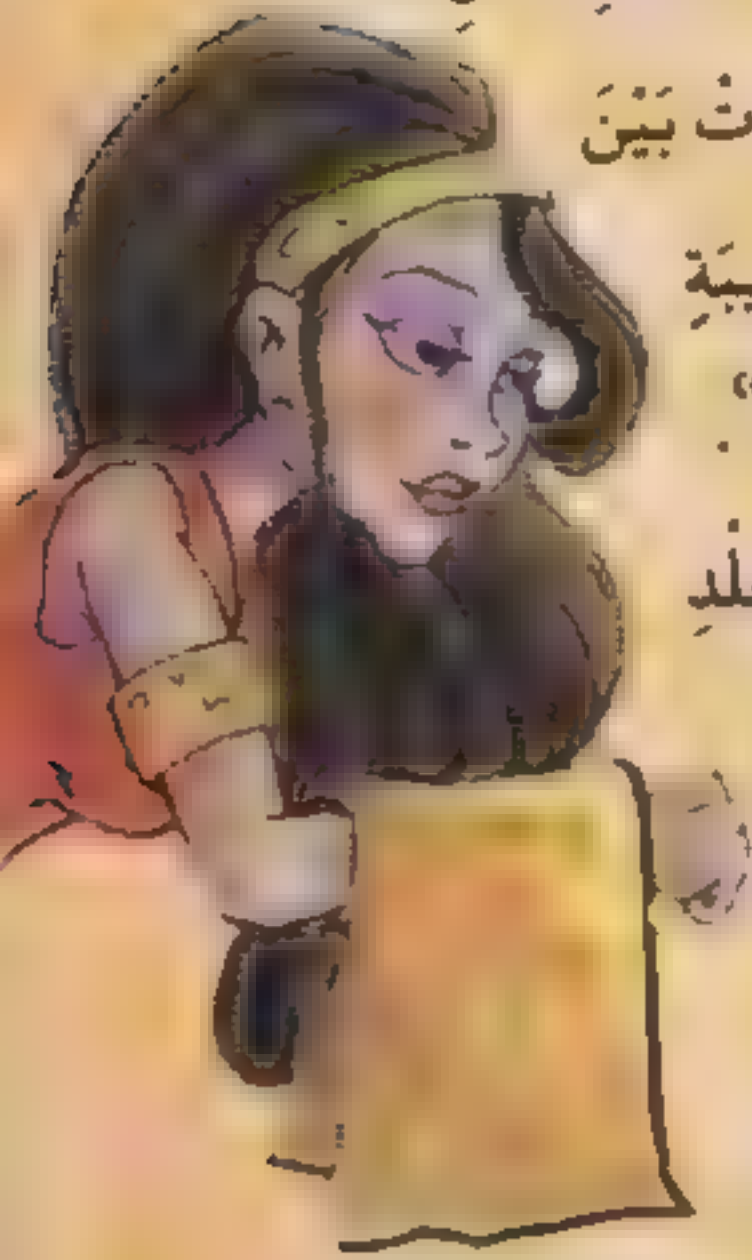
كَفَّيْهَا مَنَشَفَةً مُطْرُزَةً بِرُسُومِ مَلَوْنَةٍ لِحَيَوَانَاتٍ وَطُيُورٍ غَرِيبَةٍ
وَقَالَتْ: "وَهَذِهِ مَنَشَفَتُكَ الَّتِي تَفْضُلُهَا يَا سَيِّدِي السُّلْطَانُ".

وَاقْتَرَبَتِ الْفَتَاةُ الْآخَرَى الَّتِي عِنْدَ يَمِينِهِ وَمَعَهَا خُفٌّ مِنَ الْجِلْدِ
الثَّمِينِ يَغْطِيهِ فِرَاءٌ نَاعِمٌ وَقَالَتْ: "وَهَذَا خُفُّكَ الَّذِي يُرِيحُ
قَدَمَيْكَ يَا عَظَمَةَ السُّلْطَانِ".

أَمَّا الرَّابِعَةُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَدْ رَفَعَتْ بِيَدِهَا
مَشْطًا مُطْعَمًا بِالْمَاسِ وَالْأَخْجَارِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ تَقُولُ: "وَأَنَا
هُنَا إِذَا اخْتَجَّ شَعْرُ رَأْسِ السُّلْطَانِ إِلَى عِنَايَةٍ".

كَانَ أَبُو الْحَسَنِ يُدِيرُ رَأْسَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لِآخَرَى يَتَأَمَّلُ الْفَتَاتِ الْجَمِيلَاتِ
الرُّشِيقَاتِ وَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى اسْتِيعَابِ مَا يَرَى، ثُمَّ جَلَسَ فَجَاءَ مُتَرْبِّعًا وَسَطَ
الْفِرَاشِ وَصَاحَ بِهِنَّ: "أَنَا أَبُو الْحَسَنِ، فَمَنْ هُوَ السُّلْطَانُ؟!"

وَكَأَنَّمَا بِاتِّفَاقٍ ظَهَرَتْ عَلَامَاتُ الدَّهْشَةِ الشَّدِيدَةِ عَلَى وُجُوهِ الْفَتَاتِ
الْأَرْبَعِ..



قَالَتِ الَّتِي تَحْمِلُ إِبْرِيْقَ الذَّهَبِ:
”عَظَمَتُكَ سُلْطَانُنَا الْأَكْبَرُ حَفِظَكَ اللَّهُ“.

والتفت أبو الحسن إلى الَّتِي تُمْسِكُ الْمِنْشَفَةَ يَسْأَلُهَا فِي ذُهُولٍ: ”وَأَنْتِ.. مَاذَا تَقُولِينَ عَنِّي؟“

ابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً عَذْبَةً وَهِيَ تُجِيبُ:

”هَلْ هَذَا فِي حَاجَةٍ إِلَى سُؤَالٍ يَا مَوْلَايَ؟.. أَنْتَ السُّلْطَانُ طَبْعًا!“

هنا انفتح بابُ القاعةِ ودخلَ المُشْرِفُ عَلَى شُئُونِ الْقَصْرِ.

وراقبه أبو الحسن وهو يَقْتَرِبُ، وقد أَمْسَكَ وَرَقَةً طَوِيلَةً بَيْنَ يَدَيْهِ:

”صَبَاحُ الْخَيْرِ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانُ.. هَلْ تَسْمَحُ أَنْ أَتْلُوَ عَلَى جَلَالَتِكَ

مَا طَلَبْتَ أَنْ نَذْكُرَ بِهِ عَظَمَتَكُمْ مِنْ مَسْئُولِيَّاتٍ تَنْتَظِرُ فَخَامَتَكُمْ الْيَوْمَ؟!“

حَدَّثَ أَبُو الْحَسَنِ نَفْسَهُ فِي اسْتِنْكَارٍ:

”هَلْ هَذِهِ خُدْعَةٌ جَدِيدَةٌ يَتَلَاْعِبُونَ عَنْ طَرِيقِهَا بِعَقْلِي؟!“

ثم اعتدل وقال في صَوْتٍ حَاسِمٍ:

”الْمَسْئُولِيَّاتُ تَأْتِي بَعْدَ أَنْ أَفِيْقَ مِنَ النَّوْمِ وَالْأَخْلَامِ!“

ثم أَدَارَ عَيْنَيْهِ يَتَأَمَّلُ جُذْرَانَ الْقَاعَةِ الْمُتَسِعَةِ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ رُسُومٍ تُمَثِّلُ

أَسْمَاكَ الْبَحْرِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى سَفْفِهَا الْمُزَيْنِ بِأَشْكَالٍ هَنْدَسِيَّةٍ

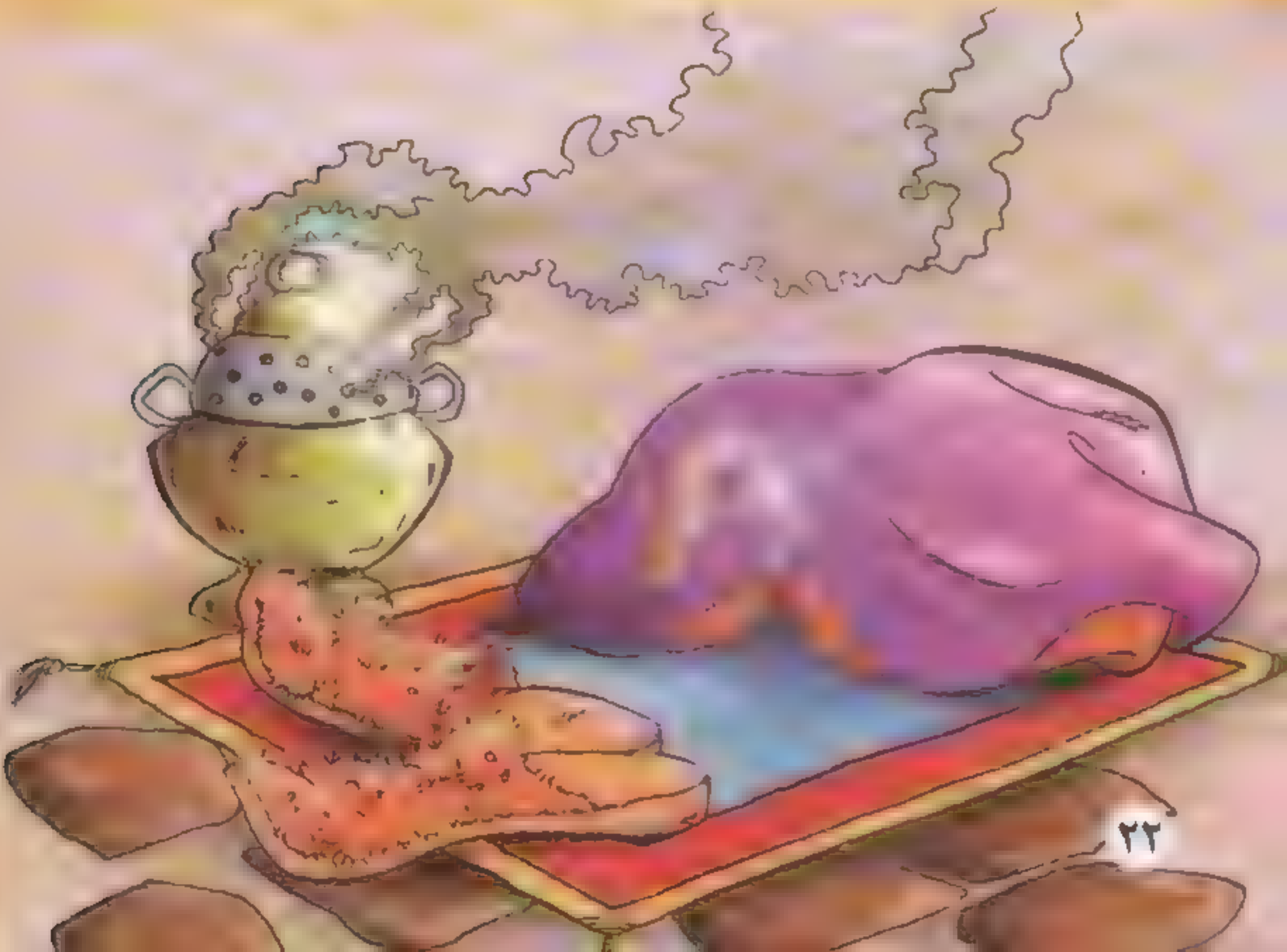
مُلَوَّنَةٍ دَقِيقَةٍ، وَتَنَبَّهَ إِلَى السَّجَاجِيدِ الثَّمِينَةِ الَّتِي تَغْطِي الْأَرْضَ بِزَخَارِفِهَا ذَاتِ

الْأَشْكَالِ الْخَيَالِيَّةِ، وَحَدَّثَ نَفْسَهُ قَائِلًا:

”قد يكون هذا خلماً، وقد يكون عملاً من أعمال الجن.. وسواء كان هذا
أو ذاك فلا بد أن أستمع به كل الاستمتاع.“
وهكذا قرّر أبو الحسن أن يتظاهر بأنه يصدق كل ما يدور حوله، وأن
يندمج فيه بكل أحاسيسه ومشاعره !

٩

وبدا بأن اغتسل، ثم تناول إفطاراً سلطانياً لم يعرف خلاله ما يأخذ
وما يترك. وعندما طلب ثيابه أخضروا له ملابس فاخرة مشغولة كلها بخيوط
الذهب والفضة، وعمامة كبيرة لا يضع مثلها على رأسه إلا السلطان.



ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى قَاعَةِ الْعَرْشِ فِي خُطَوَاتٍ بَطِيئَةٍ تُوحِي بِالْعَظَمَةِ وَالثَّقَةِ، لِيقَابِلَ
كِبَارَ رِجَالِ الدَّوْلَةِ، وَيُضَدِّرَ الْقَرَارَاتِ الهَامَّةَ، وَيَفْصِلَ فِي الْخِلَافَاتِ الْخَطِيرَةَ!
وَأثناء اقْتِرَابِهِ مِنْ "مَقْعَدِ السُّلْطَانِ" [أَوْ كُرْسِيِّ الْعَرْشِ] لَاحَظَ بِطَرْفِ
عَيْنِهِ، عَنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ، صَفَيْنِ مِنْ رِجَالٍ لَهُمْ لِحَى طَوِيلَةٌ بَيَاضَاءُ، يُنْسِكُونَ
أُورَاقًا أَوْ يَحْمِلُونَ سُيُوفًا، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَخَنُوا رُؤُوسَهُمْ انْحِنَاءً شَدِيدًا تَعْبِيرًا عَنْ
الْإِخْتِرَامِ الْكَبِيرِ.

هَمَسَ قَائِلًا لِنَفْسِهِ: "يَبْدُو أَنَّ الْأَمْرَ جَدُّ لَا هَزْلَ فِيهِ!"
وَلأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ وَقَفُوا حَوْلَهُ، فَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْمُشْرِفِ عَلَى
شُئُونِ الْقَصْرِ لِيَقْتَرِبَ مِنْهُ.

قَالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ: "أُرِيدُ الْوَزِيرَ الْأَكْبَرَ عَلَى انْفِرَادٍ."
وَاعْتَدَلَ الْمُشْرِفُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُنْحِنِيًا، وَقَالَ فِي صَوْتٍ وَاضِحٍ وَهُوَ يُوَاجِهُهُ
مَنْ وَقَفُوا صَامِتِينَ مُنْتَظِرِينَ:

"مَوْلَانَا السُّلْطَانُ يَدْعُو وَزِيرَنَا الْأَكْبَرَ إِلَى اجْتِمَاعٍ خَاصًّا"
وَكَانَتْ تِلْكَ إِشَارَةً انْسَحَبَ بَعْدَهَا كُلُّ مَنْ فِي الْقَاعَةِ، عَدَا رَجُلٍ مَهِيبٍ
الطَّلَعَةِ اسْتَنْتَحَ أَبُو الْحَسَنِ أَنَّهُ الْوَزِيرُ الْأَكْبَرُ.

سَأَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ: "أَنْتَ وَزِيرِي الْأَكْبَرُ.. فَمَنْ أَكُونُ؟"

وَفِي ثِقَةٍ أَجَابَ الْوَزِيرُ: "أَنْتَ مَوْلَايَ السُّلْطَانُ طَبْعًا!"

سَأَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ: "هَلْ تَعْرِفُ يَا وَزِيرِي تَاجَرَ الْمَاسِ إِبْرَاهِيمَ الْبَغْدَادِي؟"

أَخْفَى الْوَزِيرُ دَهْشَتَهُ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ الْمُفَاجِئِ وَأَجَابَ:

”وَمَنْ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَكْبَرَ تَاجِرِ مَاسٍ فِي بَغْدَادَ يَا مَوْلَايَ؟“
قَالَ أَبُو الْحَسَنِ فِي صَوْتٍ حَاسِمٍ: ”صَادِرُوا كُلُّ أَمْوَالِهِ، وَضَعُوهُ فِي السَّجْنِ“
نَظَرَ الْوَزِيرُ إِلَى 'أَبُو الْحَسَنِ' فِي دَهْشَةٍ وَسَكْتَةٍ.
صَاحَ بِهِ أَبُو الْحَسَنِ: ”مَا نَفَعْتُ أَنَا السُّلْطَانَ، فَعَلَى وَزِيرِي الْأَكْبَرَ تَنْفِيزُ
أَوْامِرِي“

قَالَ الْوَزِيرُ فِي اسْتِسْلَامٍ: ”أَوْامِرُ سُلْطَانِنَا مُطَاعَةٌ يَا مَوْلَايَ“
قَالَ أَبُو الْحَسَنِ فِي تَأْكِيدٍ: ”الطَّاعَةُ فِي الْحَالِ وَبَغَيْرِ إِنْطَاءٍ“
وَأَخْبَى الْوَزِيرُ رَأْسَهُ مُؤَكِّدًا أَنَّهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى تَحْقِيقِ رَغْبَةِ السُّلْطَانِ فَوْرًا.
ثُمَّ تَقَهَّقَرَ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْقَاعَةِ وَهُوَ يُخْفِي أَرْنَبَاكَه
وَعَادَ أَبُو الْحَسَنِ يُنَادِي الْمُشْرِفَ لِيَقُولَ لَهُ: ”وَأَخْضِرْ لِي وَالِيَّ بَغْدَادَ“.
وَدَخَلَ الْوَالِي وَهُوَ يَنْحَنِي مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى أَصْبَحَ إِلَى جِوَارِ
”أَبُو الْحَسَنِ“.

وَأَمَّلَى أَبُو الْحَسَنِ عَلَى الْوَالِي عُنْوَانَ جَارِهِ 'السَّيِّدِ فَاضِلٍ' الَّذِي اعْتَادَ
أَنْ يَشْكُوهُ إِلَى الْقَاضِي، ثُمَّ أَمَرَ قَائِلًا:
”اقْبِضُوا عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَأَجْبِرُوهُ عَلَى ارْتِدَاءِ مَلَابِسِ الْمُهْرَجِينَ، وَضَعُوهُ
فَوْقَ حِمَارٍ عَلَى أَنْ يَكُونَ وَجْهُهُ نَحْوَ الذَّنْبِلِ، وَطُوفُوا بِهِ أَحْيَاءَ بَغْدَادَ حَيًّا بَعْدَ
حَيٍّ وَأَمَامَهُ الْمُنَادِي بِصَيْحٍ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَفْرِضُ مَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ عَلَى
الْآخَرِينَ، وَيَدُسُّ أَنْفَهُ فِي شُئُونِ الْجِيرَانِ“.



وَكَمَا فَعَلَ الْوَزِيرُ مِنْ قَبْلُ، وَقَفَ الْوَالِي كَأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ !
وَقَالَ "أَبُو الْحَسَنِ" مُؤَكِّدًا: "هَذِهِ رَغْبَةُ السُّلْطَانِ، وَعَلَى الْوَالِي طَاعَةُ أَمْرِ
السُّلْطَانِ"

وَخَرَجَ الْوَالِي يَتَعَثَّرُ، وَدَخَلَ بَعْدَهُ آخَرُونَ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ..
وَقَضَى "أَبُو الْحَسَنِ" بَقِيَّةَ الصُّبْحِ يَتَذَكَّرُ أَسْمَاءَ كُلِّ مَنْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ، وَيَطْلُبُ
عِقَابَهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ بَعْضُهَا فِيهِ غِلْظَةٌ
وَقَسْوَةٌ، وَبَعْضُهَا فِيهِ سُخْرِيَّةٌ وَتَشْهِيرٌ!
وَفَجْأَةً تَذَكَّرَ قَوْلَ وَالِدَتِهِ إِنَّ "الْخَيْرَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّرِّ"، فَأَمَرَ بِإِخْضَارِ أَمِينِ
خِزَانَةِ السُّلْطَانِ. وَجَاءَ الرَّجُلُ مُهْزُولًا.

قَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُ عُنْوَانَ مَنْزِلِ وَالِدَتِهِ:
"فِي هَذَا الْبَيْتِ سَتَجِدُ سَيِّدَةً كَبِيرَةَ السِّنِّ.. قَدَّمْ لَهَا خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ ذَهَبِي،
وَقُلْ لَهَا هَذِهِ هَدِيَّةٌ مِنَ السُّلْطَانِ".

وَتَوَقَّفَ الرَّجُلُ لَحِظَةً، فَسَأَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ: "هَلْ تَحْتَاجُ إِلَى إِبْضَاحٍ أَكْثَرَ؟"
سَأَلَ أَمِينَ الْخِزَانَةِ مُتَلَعَثًا: "هَلْ يَقْصِدُ مَوْلَايَ أَنْ أَنْفِقَ هَذَا الْمَبْلَغَ مِنْ
أَمْوَالِ الْهَبَاتِ، أَمْ التَّغْوِيضَاتِ، أَمْ الْقُرُوضِ؟"

صَاحَ فِيهِ أَبُو الْحَسَنِ: "هَلِ الْهَبَةُ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ الْهَدِيَّةِ؟"
وَانْصَرَفَ أَمِينُ الْخِزَانَةِ مُضْطَرِبًا وَأَبُو الْحَسَنِ يَهْمِسُ إِلَى نَفْسِهِ:
"لَقَدْ أُنْسَتْنِي مَهَامُ الْحُكْمِ الشَّاقَّةِ التَّفَكِيرِ فِي الطَّعَامِ".

عندما دخل قاعة الطعام فوجئ بالأطباق والأواني يشع منها بريق أضفر
أخاذه. كانت كلها من الذهب الخالص!.. همس لنفسه:

”هذه مائدة يستحيل وجودها إلا عند ملك الجان نفسه!“

وأفاق من تأمل روعة الأطباق الثمينة عندما بدأوا في تقديم أصناف
الطعام صنفًا بعد آخر. وإذا كان أبو الحسن قد
اعتاد أن يختار لأصدقائه أفضل أنواع الطعام، فقد
وجد مائدة ”ملك الجان“ تضم عددًا لا نهائيًا
من الأصناف الشهية التي لم يسبق أن تذوقها
أوتصور يومًا أنها يمكن أن تجتمع على مائدة واحدة:

لحم فخذ الغزال المشوي بجوار صدر الطاووس المخشوش

بالمكسرات، فشريات البحر النادرة بجوار بيض النعام الكبير، وفطائر جوز
الهند وعسل النحل مع الفالودج المحلي بماء الورد وعصير البرتقال، وفاكهة
الأناس مع الزبيب، وخلوى بلاد الهند مع خلوى الشام مزينة بأغرب
الزهور الحمراء والصفراء والوردية.

والأجمل من الطعام كانت الفتيات اللاتي يقدمن الطعام، يضعن نوعًا
من الطعام ويرفعن آخر، تزيّن وجوههن ابتسامات عذبة تشع من العيون
والشفاه، وترتفع ضحكاتهن الخافتة كأنها نغمات أجراس فضية كلما داعب



إِخْدَاهُنَّ بِكَلِمَةٍ إِعْجَابٍ أَوْ طَلَبَ مَزِيدًا مِنْ أَحَدِ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ. لَقَدْ عَرَفَ أَنَّ
أَجْمَلَهُنَّ اسْمُهَا "زَهْرُ الْيَاسْمِينِ"، فَسَأَلَهَا مُبْتَسِمًا:

"يَا زَهْرَ الْيَاسْمِينِ.. أَيْنَ نَحْنُ الْآنَ؟"

وَبَغَيْرِ تَرَدُّدٍ أَجَابَتْهُ فِي بَرَاءَةٍ: "نَحْنُ فِي قَصْرِكَ طَبْعًا يَا مَوْلَايَ السُّلْطَانِ!"

عَادَ يَسْأَلُهَا ضَاحِكًا: "وَأَنْتِ.. هَلْ أَنْتِ مِنَ الْبَشَرِ أَمْ جَنِّيَّةٌ مِنْ بَنَاتِ مَلِكِ الْجَانِّ؟"
فَتَضَاحَكْتَ زَهْرُ الْيَاسْمِينِ وَشَارَكَتْهَا زَمِيلَاتُهَا الضُّحُكَ، وَقَدْ وَجَدْنَ فِي تِلْكَ
الضُّحُكَاتِ الرُّدَّ الطَّبِيعِيَّ عَلَى مَا تَصَوَّرْنَهُ فُكَاهَةً يُبْدِي بِهَا السُّلْطَانُ إِعْجَابَهُ بِهِنَّ!
أَمَّا أَبُو الْحَسَنِ فَقَدْ انْتَهَى رَأْيُهُ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قَابَلَهُمْ أَوْ حَدَّثَهُمْ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ، بِمَنْ فِيهِمُ الْوَزِيرُ وَالْوَالِي وَالْمُشْرِفُ عَلَى شُئُونِ الْقَصْرِ، كُلُّهُمْ مِنْ عَالَمِ
الْجَانِّ، وَأَنَّ آخِرَ شَخْصٍ اسْتَضَافَهُ فِي مَنْزِلِهِ كَانَ "مَلِكُ الْجَانِّ" نَفْسَهُ، وَأَنَّهُ يَرُدُّ
لَهُ الْآنَ التَّجِيَّةَ بِأَفْضَلِ مِنْهَا.

١١

بَعْدَ أَنْ انْتَهَى أَبُو الْحَسَنِ مِنْ تَنَاوُلِ أَشْهَى طَعَامٍ تَنَاوَلَهُ فِي حَيَاتِهِ، تَقَدَّمَ
نَحْوَهُ الْمُشْرِفُ عَلَى شُئُونِ الْقَصْرِ قَائِلًا:

"أَعَدَدْنَا لِعَظَمَتِكُمْ حَفْلًا فَنِيًّا مُتَمِيزًا فِي فِتْرَةِ الْمَسَاءِ، لِلتَّخْفِيفِ عَنْكُمْ بَعْدَ
هَذَا الْجَهْدِ الْكَبِيرِ الَّذِي بَدَلْتُمُوهُ لِإِضْدَارِ كُلِّ تِلْكَ الْأَحْكَامِ فِي الصَّبَاحِ..
نَرْجُو أَنْ يَرْضَى مَوْلَايَ عَمَّنْ وَقَعَ عَلَيْهِمْ اخْتِيَارُنَا مِنَ الْمَوْسِيقِيِّينَ وَالْمُغَنِّيَّاتِ
وَالرَّاقِصَاتِ."

ذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ الْحَقِيقِيَّ، الَّذِي كَانَ يُرَاقِبُ كُلَّ شَيْءٍ فِي شَغَفٍ مِنْ وَرَاءِ
سِتَارٍ، رَأَى أَنَّهُ يَجِبُ الْاِكْتِفَاءُ بِمَا فَعَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ طَوَالَ الصُّبَاحِ فِي مَجْلِسِ
الْحُكْمِ، مِنْ تَغْلِيْبِ الْاِنْتِقَامِ عَلَى الْعَدَالَةِ !

وَفِي نِهَآيَةِ السَّهْرَةِ الْمُتَمَتِّعَةِ الْبَآذِخَةِ، وَتَنْفِيْذًا لِأَمْرِ السُّلْطَانِ الْحَقِيقِيَّ، وَضَعُوا
لَأَبِي الْحَسَنِ مَنَومًا فِي آخِرِ كَأْسِ عَصِيرٍ تَنَاوَلَهُ، فَاسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ .
عِنْدئِذٍ خَلَعُوا عَنْهُ الْمَلَابِسَ السُّلْطَانِيَّةَ، وَالْبَسُوهُ مَلَابِسَهُ الَّتِي جَاءَ بِهَا،
وَأَعَادُوهُ فِي الْخَفَاءِ إِلَى بَيْتِهِ، وَتَرَكَوْهُ نَائِمًا فَوْقَ فِرَاشِهِ الْمُعْتَادِ .

١٢

لَمْ يَكُنِ الظُّلَامُ قَدْ اِنْقَشَعَ بَعْدُ عِنْدَمَا فَتَحَ أَبُو الْحَسَنِ عَيْنَيْهِ، فَلَمْ يَتَنَبَّهُ إِلَى
أَنَّ السِتَائِرَ الْبَيْضَاءَ الْمُتَمَوِّجَةَ الَّتِي كَانَتْ تُحْبِطُ بِسَرِيرِهِ السُّلْطَانِيَّ لَمْ يَعُدْ لَهَا
أَشْرًا

جَلَسَ فَوْقَ الْفِرَاشِ وَقَدْ تَوَقَّعَ أَنْ تُشْرِقَ الْأَنْوَارُ الْبَاهِرَةُ، لَكِنْ الظُّلَامُ ظَلَّ
مُخَيِّمًا !

صَفَقَ وَهْتَفَ: "أَيُّهَا الْوَصِيفَاتُ.. مَاءُ الْاِغْتِسَالِ.. الْخُفُّ وَالْمَشْطَاءُ.." لَكِنَّهُ لَمْ
يَسْمَعْ إِلَّا صَدَى صَوْتِهِ !

عَادَ يَصِيحُ فِي اِنْفِعَالٍ: "يَا مُشْرِفَ الْقَصْرِ.. يَا زَهَرَ الْيَاسْمِينِ.." !
فَاطَّلَ عَلَيْهِ وَجْهٌ تَمْلُؤُهُ التَّجَاعِيدُ..

كَانَ وَجْهٌ وَالِدَتِهِ مُتَزَعِّجَةٌ حَائِرَةٌ ! !

استشاط غضبًا: "ما الذى جاء بك إلى قصرى السلطانى بملايسك المنزلية
هذه؟! هيا.. عودى فورًا إلى بيتك!"
ظنته فى كابوس يهذى فقالت فى قلق: "استيقظ يا "أبو الحسن" .. إننى
فى بيتى يا ابنى!"



واَصَلَ صِيَاخَهُ: 'أَنَا لَسْتُ فِي بَيْتِكَ، وَلَسْتُ ابْنُكَ.. أَنَا فِي قَصْرِى وَأَنَا السُّلْطَانُ!'

وفى تلك اللَّحْظَةِ فَقَطْ تَنَبَّهَتْ حَوَاشُهُ إِلَى مَلَمَسِ الْفِرَاشِ تَحْتَهُ.. لَيْسَ نَاعِمًا شَدِيدَ النُّعُومَةِ، وَلَا لَيْنًا شَدِيدَ اللَّيْنِ!!

وفى صَوْتِ اخْتَلَاطٍ فِيهِ الْهَذْيَانُ بِالسُّخْطِ عَادَ يَصِيحُ: "أَيْنَ أَنَا؟!"
قَالَتْ وَالِدَتُهُ وَقَدْ اشْتَدَّ قَلْقُهَا عَلَى سَلَامَةِ عَقْلِ ابْنِهَا: 'أَنْتَ فِي بَيْتِكَ وَعَلَى فِرَاشِكَ.. اانتَظَرْتُكَ طَوَالَ أَمْسٍ لِأَتَقِلَ إِلَيْكَ أَخْبَارَ إِكْرَامِ السُّلْطَانِ لِي.. لَقَدْ أَرْسَلَ لِي مَعَ رَسُولِهِ الْخَاصِّ خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ ذَهَبًا!'

صَاحَ فِي شِبْهِ جُنُونٍ: 'تَقُولِينَ خَمْسَةَ آلَافٍ أَرْسَلَهَا السُّلْطَانُ؟!'
عَادَتْ تَقُولُ وَقَدْ تَصَوَّرَتْ أَنَّهُ بَدَأَ يَفِيقُ مِنْ أَوْهَامِهِ:

"وَجَارُنَا "السَّيِّدُ فَاضِلُ" الَّذِى طَالَمَا قَدَّمَ الشُّكَاوَى ضِدَّكَ إِلَى الْقَاضِى..
جَعَلُوهُ مُهْرًا بِأَمْرِ السُّلْطَانِ فَأَصْبَحَ أَضْحُوكَةَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَهُوَ يَرْكَبُ
جِمَارًا بِالْمَقْلُوبِ!"

وَتَعَالَى صِيَاخَهُ: "إِذَنْ فَقَدْ نَفَّذُوا أَوْامِرِى بِعِقَابِ ذَلِكَ
الكَارِهِ لِأَفْرَاحِ الْآخَرِينَ؟!"

رَبَّتْ أُمُّهُ عَلَى كَتِفِهِ تَحَاوَلُ تَهْدِئَتَهُ وَهِيَ تَقُولُ: "تَنَبَّهْ يَا
وَلَدِى.. أَقُولُ إِنَّ هَذِهِ أَوْامِرَ السُّلْطَانِ!.. بَلْ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ
قَامُوا أَيْضًا بِمُصَادَرَةِ أَمْوَالِ تَاجِرِ الْمَاسِ وَالِدِ نَجْمَةَ
الصُّبَاحِ وَوَضَعُوهُ فِي السَّجْنِ!"



وانطلق أبو الحسن يدور في الغُرْفَةِ كالمجنون وهو يهذي صائحًا:
”إنَّها أوامري.. أنا السُّلطان.. لَسْتُ أَحِلُّم.. أَنْتِ تَذْكُرِينَ وقائعَ حدثتِ فعلاً..
أنا لَسْتُ مَجْنُونًا!“

وسَمِعَ الجيرانُ صَوْتَهُ يَتَعَالَى وهو يَصْرُخُ ولا يكفُّ عن الصُّراخِ مُؤَكِّدًا:
”قُلْتُ لَكَ أَنَا السُّلطانُ.. لم تَخْذَعِي حواسِي.. أنا الذي أُرسلتُ الذَّهَبَ
وأمرتُ بمُعاقبةِ الشرِّ والأشرار!“

وتَجَمَّعَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَدافَعُوا وهم يَفْرَعُونَ البابَ بِشِدَّةٍ وقد مَلَأهم
صُراخُ ”أبو الحسن“ بالفزعِ وَحُبِّ الاستِطلاعِ.

وفتَحَتْ لهم الأُمُّ البابَ والذُّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا وهي تَصيحُ: ”أُنْقِذُوا
ولدي.. أصابَتْهُ نَوْبَةٌ جُنُونٍ.. يَهْذِي ولا يَذْرى ما ذا يَقُولُ!“

وفي دهشةٍ شاهِدَ المُتَزاحِمُونَ ”أبو الحسن“ يَصيحُ بكَلَامٍ غَيرِ مَفْهُومٍ عن
ذَهَبٍ ودنانيرٍ وسُلطانٍ وعُقوباتٍ وأشرارٍ، وتأكَّدوا أَنَّهُ يُكْرِّرُ بغيرِ انْقِطاعِ
قَوْلَهُ: ”أنا السُّلطانُ قُلْتُ.. أنا السُّلطانُ فَعَلْتُ..“ فوثِقُوا أَنَّهُ فَقَدَ عَقْلَهُ. عندئذٍ
تكاثروا عليه وقَيَّدوا يَدَيْهِ، وحَمَلُوهُ رَغْمًا عنه إلى ”بَيْتِ المَجانين“، حَيْثُ
يَخْجَزُونَ مَرَضَى الأمراضِ العَقْلِيَّةِ.

١٣

ولأنَّه لم يتوقَّفَ عن صِياحِهِ وتأكِيدِ أَنَّهُ السُّلطانُ، ولأنَّه ظَلَّ يُقاوِمُ بعُنفٍ كُلَّ
مَنْ يُحاولُ إِفْهَامَهُ أَنَّهُ ”أبو الحسن“، فإنَّ المُشْرِفينَ عَلى ”بَيْتِ المَجانين“



أو "المارستان" اضطروا إلى تقييد قدميه ويديه بالسلاسل الحديدية الثقيلة
لكن لا يؤذي أحدا.

ثم بدأوا علاجه بضربه عدة مرات ضربا عنيفا بالعصى الرفيعة على
كل جزء من أجزاء بدنه، لكن يجبروا "الأزواج الشريرة" التي تلبسته على
مغادرة جسده!

ولأن "أبو الحسن" لم يكن مخنونا، ولأنه كان على ثقة، بعد حديث أمه،
من أنه هو الذي أضدر شخصيا تلك الأوامر التي نقلت إليه والدته أخبار

تَنفِيذِهَا، فَقَدْ ظَلَّ مُصِرًّا عَلَى أَنَّهُ السُّلْطَانُ، فَأَصَرَ الْمُعَالِجُونَ عَلَى ضَرُورَةِ
الاسْتِمْرَارِ فِي "عِلَاجِهِ" بِذَلِكَ الْأَسْلُوبِ الْمُؤْلِمِ الْمُخِيفِ، بَلِازْدَادَتْ جُرْعَاتُ
"العِلاجِ" بِأَن ضَاعَفُوا عَدَدَ ضَرْبَاتِ تِلْكَ الْعِصِي طَارِدَةِ الْعَفَارِيتِ !

١٤

وظَلَّتْ والدَتُهُ حَرِيصَةً عَلَى زِيَارَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ، وَفِي أَوَّلِ يَوْمَيْنِ رَفَضَ تَمَامًا
الاسْتِمَاعَ إِلَى أَيَّةِ كَلِمَةٍ مِنْهَا.

لَكِنْ حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَنْ تَغَيَّرَتِ الْأُمُورُ.
قَالَتْ لَهُ والدَتُهُ مُتَظَاهِرَةً بِتَضَدِّيقِهِ: "حَتَّى إِذَا كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أُضْذِرْتَ حَقًّا
كُلَّ تِلْكَ الْأَوَامِرِ الَّتِي قَلَبْتَ بَغْدَادَ رَأْسًا عَلَى عَقِبِهِ، فَلَنْ يُصَدِّقَكَ أَحَدٌ، وَسَتَظَلُّ
مَخْبُوسًا مُقَيَّدًا مَضْرُوبًا فِي هَذَا الْمَكَانِ الضَّيِّقِ الْمُظْلِمِ الْكَرِيمِ، إِلَّا إِذَا اعْتَرَفْتَ
بِأَنَّ كُلَّ مَا قُلْتَهُ مُجَرَّدُ أَخْلَامٍ وَتَخَيُّلاتٍ تَرَاءَتْ لَكَ فِي كَابُوسٍ"

سَأَلَهَا فِي قَلْبِهَا: "وَمَاذَا فِي أَوَامِرِي قَلَبَ بَغْدَادَ رَأْسًا عَلَى عَقِبِهِ؟"
قَالَتْ والدَتُهُ فِي أَسْفٍ: "كُلُّ أَصْحَابِ حَوَانِيَتِ الْمَاسِ وَالذَّهَبِ أَغْلَقُوهَا
وَقَدْ اسْتَبَدَّ بِهِمُ الْخَوْفُ، لِأَنَّ السُّلْطَانَ صَادَرَ بِغَيْرِ سَبَبٍ كُلَّ مَا فِي حَانُوتِ
إِبْرَاهِيمَ الْبَغْدَادِيِّ وَمَا فِي بَيْتِهِ مِنْ مَاسٍ وَذَهَبٍ وَأَمْوَالٍ، ثُمَّ أُلْقَاهُ فِي السَّجْنِ..
كُلُّهُمْ يَخْشَى نَفْسَ الْمَصِيرِ!"

سَأَلَ أَبُو الْحَسَنِ فِي دَهْشَةٍ: "كُلُّ هَذَا لِأَنَّ السُّلْطَانَ عَاقَبَ رَجُلًا أَخْلَ
بِوَعْدِهِ؟"

أَضَافَتْ وَالِدَتُهُ: "بَلِ امْتَنَعَ النَّاسُ عَنِ الذُّهَابِ إِلَى الْقَاضِي لِتَقْدِيمِ تَظْلُمَاتِهِمْ،
فَقَدْ أَوْقَعَ السُّلْطَانُ الْعِقَابَ وَالتُّشْهِيرَ عَلَى جَارِنَا لِأَنَّهُ تَجَرَّأَ وَلَجَأَ إِلَى الْقَاضِي
طَالِبًا إِنْقَاذَهُ مِنْ صَخَبِكَ أَنْتَ وَأَصْحَابِكَ."

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ وَقَدْ زَادَتْ دَهْشَتُهُ: "بَلِ جَارِنَا هُوَ الَّذِي اغْتَدَى عَلَى حُرِّيَّتِنَا!"
قَالَتْ وَالِدَتُهُ: "بَلِ هُوَ الْقَاضِي الَّذِي رَأَى أَنَّكُمْ اغْتَدَيْتُمْ عَلَى حَقِّ جَارِنَا فِي
الرَّاحَةِ. النَّاسُ أَصْبَحُوا يَخَافُونَ مِنْ عِقَابِ السُّلْطَانِ إِذَا اسْتَخْدَمُوا حَقَّهُمْ فِي
اللُّجُوءِ إِلَى الْقَاضِي!"

تَزَايَدَ قَلْقُ "أَبُو الْحَسَنِ" وَهَتَفَ مُخْتَجًّا: "كُلُّ هَذَا لِأَنَّ الْجَانَّ جَعَلُوا مِنِّي
سُلْطَانًا لِيَوْمٍ وَاحِدٍ؟!"

قَالَتْ وَالِدَتُهُ: "أَنْصَحُكَ بِنِسْيَانِ ذَلِكَ الْيَوْمِ سِوَاءَ كَانَ حَقِيقَةً أَوْ حُلْمًا، فَقَدْ
تَوَقَّفَتْ حَرَكَةُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فِي بَغْدَادَ، لِأَنَّ كُلَّ شَخْصٍ أَصْبَحَ غَيْرَ آمِنٍ عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ غَضَبِ السُّلْطَانِ وَعُقُوبَاتِهِ الْغَرِيبَةِ غَيْرِ الْمَفْهُومَةِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا
عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ."

وَتَمَهَّلَتْ قَبْلَ أَنْ تُضِيفَ: "بَلِ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ!"

صَاحَ أَبُو الْحَسَنِ: "هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ الْأَسْوَأُ؟!"

قَالَتْ: "يَقُولُونَ إِنَّ سُلْطَانَنَا يُبْعَثُ خَزَائِنَ بَيْتِ
الْمَالِ بِغَيْرِ حِسَابِهِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا أَنَّنِي تَسَلَّمْتُ
مِنْ رَسُولِهِ خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ مِنْ ذَهَبٍ!"



ولم يُطِقْ أبو الحسن أن يسمع أكثرَ من ذلك، فصاح مُنادياً:
 "أيها المشرفون على المارستان.. لقد كُنتُ مَجْنُونًا وأنا الآنَ صَحيحٌ
 مُعافى.. أيها الأطباء، لقد كُنتُ أَحْلَمُ وَقَدْ أَفْقَتُ مِنْ حُلْمِي.."
 وتأكَّدَ الأطباءُ مِنْ صِدْقِ إِفَاقَتِهِ مِنْ نَوْبَةِ "الْجُنُونِ"، فَأَظْلَقُوا سَراحَهُ فِي
 نِهَايَةِ اليَوْمِ الثَّالِثِ وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ:
 "لقد جَعَلَنِي "مَلِكُ الْجَانِّ" أَدَاةً لَأَتَسَبَّبَ فِي كُلِّ هَذَا الْأَذَى لِأَهْلِ بَغدَادَ.."
 وَتَمَهَّلَ ثُمَّ أَضَافَ:
 "حَتَّى هُوَ يُقَابِلُ إِحْسَانِي بِالْإِسَاءَةِ، مِثْلُهُ فِي هَذَا مِثْلُ كُلِّ مَنْ كُنتُ أَظُنُّ
 أَنَّهُمْ أَصْحَابِي!"

١٥

عَادَ أَبُو الْحَسَنِ يَسْأَلُ نَفْسَهُ فِي الْخَاحِ بَعْدَ أَنْ غَادَرَ الْمَارِسْتَانَ:
 "كَيْفَ أَضْلَعُ مَا جَعَلَنِي مَلِكُ الْجَانِّ أَتَسَبَّبُ فِي إِفْسَادِهِ؟!"
 بَدَأَ بِأَنْ أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى تَاجِرِ الْمَاسِ إِبْرَاهِيمَ الْبَغْدَادِي فِي سِجْنِهِ،
 يُعَاوِذُ طَلِبَةَ الزَّوْاجِ مِنْ "نَجْمَةِ الصَّبَاحِ"، بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّ الْخَاطِبَ الْجَدِيدَ
 "مَنْصُورَ الْمُوصَلِي" قَدْ تَرَاوَعَ عَنْ مَشْرُوعِهِ لِلزَّوْاجِ مِنْهَا، عِنْدَمَا وَجَدَ وَالِدَهَا
 قَدْ أَصْبَحَ مَحَلَّ غَضَبِ السُّلْطَانِ.
 لَكِنَّ التَّاجِرَ السَّجِينَ رَفَضَ أَنْ يُجِيبَهُ بِشَيْءٍ قَائِلًا لِرَسُولِ "أَبُو الْحَسَنِ":
 "لَنْ أَتَّخِذَ أَيَّ قَرَارٍ بِشَأْنِ مُسْتَقْبَلِ ابْنَتِي وَأَنَا تَحْتَ ضَغْطِ هَذَا الْعِقَابِ الَّذِي
 أَصَابَنِي بِغَيْرِ سَبَبٍ مَفْهُومٍ."

أما الجار الذي اغتكَفَ في بَيْتِهِ خَجَلًا مِنْ مُقَابَلَةِ النَّاسِ بَعْدَ مَا أَصَابَهُ مِنْ إِهَانَةٍ وَتَشْهِيرٍ، فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ "أَبُو الْحَسَنِ" يَقُولُ: "سَنُرَاعِي أَلَا تَصِلَ إِلَيْكَ أَصَوَاتُنَا عِنْدَ إِقَامَةِ الْحَفَلَاتِ وَدَعْوَةِ الْأَصْدِقَاءِ إِلَى بَيْتِي".
 لَكِنَّ الْجَارَ رَفَضَ أَنْ يَسْتَمِعَ إِلَى كَلِمَةٍ مِنْ رَسُولِهِ قَائِلًا: "مَا أَصَابَنِي مِنْ إِهَانَةٍ لَا أَسْتَحِقُّهَا، يَسْتَحِيلُ أَنْ يُخَفَّفَ مِنْهُ شَيْءٌ".
 هُنَا أَذْرَكَ أَبُو الْحَسَنِ أَنَّهُ عِنْدَمَا أَتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْحُكْمِ أَسَاءَ اسْتِخْدَامِ سُلْطَتِهِ، وَأَفْسَدَ الْأُمُورَ الَّتِي كَانَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ سَيَعْمَلُ عَلَى إِصْلَاحِهَا.

١٦

كَانَ السُّلْطَانُ قَدْ قَضَى الْأَيَّامَ الثَّلَاثَةَ الْأَخِيرَةَ فِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ، فَلَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ مُتَابَعَةِ أَخْبَارِ الشَّابِّ الَّذِي جَعَلَ مِنْهُ بَطْلًا لِأَخِرِ دُعَابَاتِهِ فِي قَصْرِهِ بِبَغْدَادَ.
 لَكِنَّ الْوَزِيرَ الْأَكْبَرَ نَقَلَ إِلَى السُّلْطَانِ بَعْدَ أَنْ عَادَ، مَا تَضَطَّرَبُ بِسَبَبِهِ الْحَيَاةُ فِي بَغْدَادَ، فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنْ يَتَنَكَّرَ مَرَّةً أُخْرَى فِي زِيِّ تَاجِرٍ، وَاسْتَظَرَ مَعَ تَابِعِهِ عَلَى مَقْهَى يَقَعُ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِ "أَبُو الْحَسَنِ".
 وَعِنْدَمَا فُوجِيَ أَبُو الْحَسَنِ بِرُؤْيَا التَّاجِرِ، صَاحَ فِي فَرْعٍ: "هَآ هُوَ مَلِكُ الْجَانِّ يُطَارِدُنِي ثَانِيَةً!.. وَأَسْرَعَ يُدِيرُ وَجْهَهُ بَعِيدًا عَنْهُ لِكِنِّ لَا يَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ بِسَيْرٍ فِي اتِّجَاهِ آخِرٍ لِيَتَهَرَّبَ مِنْ لِقَائِهِ، لَكِنَّ السُّلْطَانَ الْمُتَخَفِيَّ أَسْرَعَ وَرَاءَهُ يُنَادِيهِ.

تَوَقَّفَ أَبُو الْحَسَنِ غَاظِبًا ثَائِرًا: "لِمَاذَا لَا تَتْرُكُنِي فِي حَالِ سَبِيلِي يَا مَلِكَ
الْجَانِّ؟! لِمَاذَا تُحَاوِلُ إِفْسَادَ حَيَاتِي مِنْ جَدِيدٍ؟!"

قَالَ السُّلْطَانُ الْمُتَخَفِيُّ فِي دَهْشَةٍ: "أَنَا تَاجِرٌ وَلَيْسَتْ لِي عِلَاقَةٌ بِالْجَانِّ
وَمُلُوكِهِمْ! لِمَاذَا تُقَابِلُ تَحِيَّتِي بِهَذَا السُّخْطِ وَالْغَضَبِ؟!"

وَلَمْ يَتَوَقَّفَ "أَبُو الْحَسَنِ" عَنْ ثَوْرَتِهِ: "هَلْ تَنَاسَيْتَ بِسُرْعَةٍ أَنَّكَ تَسَبَّيْتُ فِي
أَنْ أَكُونَ سَبِيًّا لِإِيْدَاءِ كُلِّ أَهْلِ بَغْدَادَ؟! كَيْفَ تَتَجَاوَلُ الْحَبَسَ وَالضَّرْبَ اللَّذَيْنِ
عَانَيْتُ مِنْهُمَا بِسَبَبِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِطَوْلِهِمَا؟!.. ابْتَعدْ عَنِّي.. لَا أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ مَعْرِفَةٌ بَعْدَ الْآنَ!"

قَالَ السُّلْطَانُ الْمُتَخَفِيُّ وَقَدْ أَزْدَادَتْ دَهْشَتُهُ: "قَضَيْتُ الْإَيَّامَ الثَّلَاثَةَ الْمَاضِيَةَ بَعِيدًا
عَنْ بَغْدَادَ، فَكَيْفَ أَكُونُ مَسْئُولًا عَنْ سَجْنِكَ وَاضْطِرَابِ الْأُمُورِ فِي الْعَاصِمَةِ؟!"
وَلَمْ تَخَفُثْ حِدَّةُ الْغَضَبِ فِي نَبْرَةٍ "أَبُو الْحَسَنِ":



”دَعَوْتُكَ إِلَى مَنْزِلِي وَقَدَّمْتُ لَكَ طَعَامِي، ثُمَّ تَسَبَّيْتُ فِي اتِّهَامِي بِالْجُنُونِ،
بَعْدَ أَنْ أُعْطِيتُنِي الْفُرْصَةَ لِإِثْبَاتِ النَّاسِ.. ابْتَغِدْ عَنِّي.. أَنَا لَا أُرِيدُ رُؤْيَا
وَجْهِكَ يَا مَلِكَ الْجَانِّ الْمُنْذِرَ بِالشَّرِّ!..“
قَالَ السُّلْطَانُ لِيُخَفِّفَ عَنْهُ:

”لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَا نَفْسِي أَنَّ السَّاعَاتِ الَّتِي قَضَيْتَهَا فِي بَيْتِكَ كَانَتْ حُلْمًا
نَسَجَهُ حَوْلِي جَنِّي ظَرِيفٌ قَابِلُنِي فَوْقَ جَسَرِ بَغْدَادَ بَعْدَ أَنْ اتَّخَذَ شَكْلَكَ
وَمَظْهَرَكَ، وَقَدْ جِئْتُ الْآنَ لِأَرَاكَ ثَانِيَةً وَأَتَأَكَّدُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ لَهُ وَجُودٌ حَقِيقِيٌّ
وَلَسْتُ خِيَالًا صُورْتُهُ لِي أَوْهَامِي.. الْآنَ اتَّضَحَتْ لِي الْأُمُورُ، فَإِذَا كُنْتُ تَقُولُ
إِنَّكَ كُنْتَ ضَحِيَّةَ مَلِكِ الْجَانِّ، فَلَا شَكَّ أَنِّي أَنَا أَيْضًا كُنْتُ أَحَدَ ضَحَايَا ذَلِكَ
الْمَلِكِ الْخَفِيِّ نَفْسِيهِ!“

وَكَانَتْ لَهَجَةُ الصَّدَقِ فِي حَدِيثِ التَّاجِرِ، أَوِ السُّلْطَانِ الْمُتَخَفِي، كَافِيَةً لِيَتَخَلَّى
”أَبُو الْحَسَنِ“ عَنْ اتِّهَامَاتِهِ وَيَقُولُ:

”لَمْ أَكُنْ أَرَى الْأُمُورَ عَلَى هَذَا النُّحُو، لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ تَقْبَلَ اعْتِذَارِي عَنْ
اتِّهَامِكَ.. لَقَدْ هَزَّتْنِي الْأَخْدَاثُ، فَقَدْ كُنْتُ أَيُّهَا التَّاجِرُ آخِرَ شَخْصٍ رَأَيْتُهُ قَبْلَ
أَنْ يَسْتَوْلِيَ مَلِكُ الْجَانِّ الشَّرِيرُ عَلَى حَيَاتِي!“

ثُمَّ تَمَهَّلَ قَبْلَ أَنْ يُضِيفَ: ”وَلَكِنِّي أَعْبُرُ لَكَ عَنْ أَسْفَى لِمَا وَجَّهْتُهُ إِلَيْكَ مِنْ
اتِّهَامَاتٍ، أَرْجُو أَنْ تَقْبَلَ دَعْوَتِي وَتُشَارِكَنِي مَايُدَّتْنِي هَذَا الْمَسَاءَ أَيْضًا“..

وَهَكَذَا وَلِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، اسْتَضَافَ أَبُو الْحَسَنِ فِي بَيْتِهِ ذَلِكَ التَّاجِرَ الَّذِي
لَا يَعْرِفُهُ.

وعرّف السلطان المتخفي أثناء تناول الطعام التفاصيل الدقيقة لكل ما
حدث لأبي الحسن، فقال لنفسه:

”إذن أعطيتُ فرصة لإصلاح ما أفسدته في المرة الأولى.“

لذلك فإنه على غفلة من ”أبو الحسن“ وضع له للمرة الثالثة المادة المنومة
في كأس عصيره، ونقله نائمًا لا يعي شيئًا إلى قصره كما حدث من قبل.
وأفاق أبو الحسن هذه المرة على ألحان موسيقى وغناء، ووجد
”زهر الياسمين“ تطل عليه بوجهها المشرق الصبوح وهي تقول:
”صباح سعيد يا مولاي السلطان.“

وفي هذه المرة لم يتكاسل ولم يترك نفسه للأخلام ولا لأيدي الوصيفات،
بل قفز من فراشه واقفاً وهو يصيح في فزع وقد رفع يديه نحو السماء:



”أدعوك يَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ أَنْ تُنْقِذَنِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الشَّرِيرِ الْمَسْحُورِ..
 أَدْعُوكَ أَنْ تُجَنِّبَنِي الْوُقُوعَ ثَانِيَةً فِيمَا أُسَأْتُ بِهِ إِلَى النَّاسِ فِي بَغْدَادَ..“
 تَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُشْرِفُ عَلَى شُؤْنِ الْقَصْرِ وَقَالَ فِي أَدَبٍ شَدِيدٍ:
 ”أَظْمِئْنَ يَا مَوْلَايَ .. لَقَدْ وَضَعْنَا فِي بَرْنَامِجِكُم الْيَوْمَ إِصْلَاحَ الْأَحْوَالِ
 الَّتِي فَسَدَتْ فِي بَغْدَادَ بِسَبَبِ أَحْكَامِ عَظَمَتِكُم السَّابِقَةِ!“
 وَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ قَدْ اغْتَرَمَ أَنْ يُوَاصِلَ دَعْوَاتِهِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُنْقِذُهُ مِنْ هَذِهِ
 الْمِخْنَةِ الْجَدِيدَةِ، لَكِنْ عِنْدَمَا سَمِعَ حِكَايَةَ ”إِصْلَاحِ الْأَحْوَالِ“، التَفَتَ فِي
 الْحَالِ إِلَى الْمُشْرِفِ، وَقَالَ فِي حِدَّةٍ:

”إِذَا كَانَ مَلِكُ الْجَانِّ قَدْ اغْتَرَمَ حَقًّا مُسَاعَدَتِي عَلَى إِصْلَاحِ مَا أَفْسَدْتُه
 فَعَلَيْكَ أَنْ تُسْرِعَ فِي الْحَالِ بِعَقْدِ ”مَجْلِسِ الْحُكْمِ“، وَأَنْ تَجْمَعَ أَمَامِي كُلَّ مَنْ
 قَامُوا بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِي السَّابِقَةِ. أَنَا أَمْرُهُمْ مُنْذُ الْآنَ أَنْ يُعْبُدُوا لِكُلِّ إِنْسَانٍ
 مَا أَخَذُوهُ مِنْهُ، وَأَنْ يَقُومُوا بِتَغْوِيضِ مَنْ أَصَابَهُمُ الْأَذَى فِي مَالِهِمْ أَوْ أَنْفُسِهِمْ
 بِسَبَبِ أَحْكَامِ وَأَوَامِرِ صَدَرَتْ مِنَّا وَلَا تَسْتَنِدُ إِلَى الشَّرِيعَةِ أَوْ الْقَانُونِ!“



هنا وجدَ السُّلْطَانُ أَنَّ ”أَبُو الْحَسَنِ“ قَدْ أَضْبَحَ حَكِيمًا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، وَأَنَّ
 الدُّعَابَةَ قَدْ وَصَلَتْ بِذَلِكَ إِلَى نِهَائِهَا، فَخَرَجَ مِنْ خَلْفِ السُّتَارِ الَّذِي كَانَ يَخْتَفِي
 وَرَاءَهُ، فَهَتَفَ كُلُّ مَنْ فِي الْمَكَانِ وَقَدْ انْحَنَوْا فِي اخْتِرَامٍ: ”مَوْلَانَا السُّلْطَانُ..“



وفوجئ "أبو الحسن" عندما وجد نفسه وجهًا لوجهٍ أمام سلطان بلاده الذي تصور من قبل أنه مجرد تاجر غريب، أو "ملك الجان"، فسقط أمامه على ركبتيه وقد اغترأه الرُعب والفرع.

لكن السلطان ساعده على الوقوف وهو يقول: "وقد أعددت لك مفاجأة أخرى يا "أبو الحسن"، بعد أن قمت بإلغاء أوامرك السابقة." ومن وراء الستار ظهر تاجر الماس إبراهيم البغدادي، والسيد فاضل جار "أبو الحسن".

وواصل السلطان حديثه وعلى شفثيه ابتسامة: "علينا نسيان الماضي، فبغير أخطاء كبيرة لن يتعلم الإنسان الحكمة العميقة"

والتفت إلى جار "أبو الحسن" متسائلاً: "ألنيس كذلك يا سيد فاضل؟"

قال السيد فاضل: "لن يكتشف الحكمة يا مولاي إلا من كان على استعداد لتعلمها.. لقد عوضتني يا مولاي عن كل ما أصابني، لكن لم يكن من الحكمة أن أتمادى في استخدام حقي بالشكوى الدائمة إلى القاضي من مَرَح جيرانى الشباب."

عندئذ التفت السلطان إلى تاجر الماس متسائلاً: "ولعلك أيها التاجر إبراهيم قد استطعت الآن أن ترى وجه الصواب في بغض الأمور؟"

قال تاجر الماس: "أشكر مولاي لأنه أمر برد كل أموالى التى سبق أن صودرتة فالإنسان يظل فى حاجة إلى أن يتعلم حتى آخر أيام حياته.. لقد اتضح لى أنه لم يكن من الحكمة تفضيل الثراء على الحب الصادق، فأتسبب فى تعاسة ابنتى و"أبو الحسن" يا مولاي".



عِنْدَئِذٍ وَبِإِشَارَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ انْفَتَحَ السَّتَارُ الْخَلْفِيُّ عَنْ
آخِرِهِ فَظَهَرَتْ مِنْ خَلْفِهِ شَابَّةٌ رَائِعَةُ الْجَمَالِ..

صَاحَ أَبُو الْحَسَنِ وَهُوَ يَنْدَفِعُ نَاحِيَتَهَا: "نَجْمَةُ الصُّبَّاحِ!"
قَالَ وَالِدُهَا وَهُوَ يَضُمُّ ابْنَتَهُ وَ"أَبُو الْحَسَنِ" تَحْتَ ذِرَاعَيْهِ:
"هِيَ لِي يَا مَوْلَايَ.. وَهِيَ لَهَا.."

قَالَ السُّلْطَانُ ضَاحِكًا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى "أَبُو الْحَسَنِ" نَظْرَةً حَافِلَةً
بِالْمَعَانِي:

"الْفَضْلُ فِي كُلِّ هَذَا يَعُودُ إِلَى "مَلِكِ الْجَانِّ"!! أَلَيْسَ كَذَلِكَ
يَا "أَبُو الْحَسَنِ"؟!"

وَأَخْنَى أَبُو الْحَسَنِ رَأْسَهُ لَكِنِّي لَا يُلَاحِظُ السُّلْطَانُ الدَّمُ الَّذِي انْدَفَعَ حَارًّا
إِلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي أَنْ يَعْتَذِرَ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ يُحَاوِلُ اخْتِلَاسَ
النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ "نَجْمَةِ الصُّبَّاحِ"!!



أنشطة حول القصة

نقترح عليك أن تشترك في أحد أو كل الأنشطة التالية :

- ١ - حاول أن تشرح لماذا رأى السلطان الحقيقي أنه يجب الاكتفاء بما فعله أبو الحسن من تغليب الانتقام على العدالة، وأنه عندما أتاحت له فرصة الحكم أساء استخدام سلطته.
- ٢ - تصور أنك أصبحت سلطاناً ذات يوم، فهل تسعى عندئذ لتحقيق العدالة حتى لو تعارضت مع مصالحك أو عواطفك الشخصية؟ اذكر أمثلة لذلك.
- ٣ - هناك حدود لاستخدام كل حق، ويوجد في القانون ما يسمى "إساءة استخدام الحق"، فهل تستطيع أن تشرح المواقف التي أساء فيها بعض أبطال هذه القصة، استخدام حقوقهم؟
- ٤ - حاول أن تختار اسماً جديداً لهذه القصة، وأن تذكر سبب اختيارك لهذا الاسم.
- ٥ - حاول أن تختار أحد مواقف القصة، وتعيد كتابته في شكل حوار تمثيلي.
- ٦ - حاول أن ترسم أحد مواقف القصة، مُعتمدًا على خيالك وابتكارك.

